الإمبراطورية المغولية
والهجوم على العالم الإسلامي

بدأ ظهور المغول على مسرح التاريخ في القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أن أمرهم لم يصبح ذا خطورة وأهمية إلا بعد أن أصبح جنكيز خان إمبراطوراً عليهم في بداية القرن الثالث عشر الميلادي (1260م) وهم قبيلة من التتر. وموطنهم الأصلي حول بحيرة بيكال جنوب روسيا، وحرفتهم الرعي، وهم أناس بدائيون همج لم تلمسهم يد الحضارة، غلاظ القلب والطبع.

جنكيز خان والإمبراطورية:

بدأت إمبراطورية المغول تتكوَّن عندما دخل جنكيز خان الحرب ضد الصين وهي التي استمرت من عام 1210 إلى عام 1216 وسيطر فيها على جهات كثيرة من الصين ودخل بكين العاصمة. وقد أظهرت هذه الحرب الروح التخريبية وعدم إنسانية هؤلاء الناس.

وكان انتصار جنكيز خان على إمبراطورية الصين القوية عاملاً مشجعاً على توسيع رقعة إمبراطوريته. فاتجه إلى البلاد الإسلامية، وأخضع تركستان الشرقية، ثم أتراك خوارزم عام 1220م. فلقيت المدن الإسلامية مثل بخارى وسمرقند وغيرها أبشع ألوان الدمار والقتل والنهب، مما لم يسبق له مثيل في التاريخ. وهكذا امتدت إمبراطورية جنكيز خان من الصين شرقاً إلى حدود إيران غرباً، وهي إمبراطورية كبيرة ـ في اتساعها ـ لم يحقق مثلها فاتح من الفاتحين.

هولاكو والإمبراطورية:

مات جنكيز خان وتولى بعده هولاكو حفيده الذي ضمّ إيران إلى إمبراطورية المغول. وبعدها حارب الخلافة العباسية واستولى على بغداد في فبراير 1258م وقتل الخليفة المستعصم ومجموعة من أبناء البيت العباسي وكبار رجال الدولة والعلم. كما انساب المغول في أحياء بغداد يقتلون ويسلبون ويدمرون لمدة أربعين يوماً، وحرقوا وأغرقوا مئات الآلاف من الكتب النفيسة.

وطارت أخبار هذه الكارثة إلى الشام ومصر، وأحدثت رعباً هائلاً هناك. وبدأ هولاكو الزحف على شمال العراق، ثم أسقط مدن الشام واحدة تلو الأخرى. ولما وصل إلى حلب بلغته الأخبار بوفاة خان المغول الأعظم فاضطر إلى العودة مسرعاً إلى جوف آسيا للمشاركة في اختيار الخان الجديد؛ تاركاً قيادة جيشه في الشام إلى كتبغا. واستولى كتبغا على دمشق. ومن ثم أخذ المغول يتطرقون إلى فلسطين في طريقهم إلى مصر.

وكان هولاكو قد أرسل إلى السلطان المملوكي في مصر (قطز) خطاب تهديد يطالبه بالتسليم ويخيفه من عاقبة العناد والمقاومة. ولكن قطز قرر المقاومة، وقتل رسل المغول وعلّق رؤوسهم على أحد أبواب القاهرة، وفاجأ الجيش المصري المغول عند عين جالوت ـ قرب مدينة نيسان ـ في سبتمبر 1260 ونشبت معركة فاصلة هزم فيها المغول هزيمة ماحقة وقتل كتبغا، ثم تتبع الجيش المصري المغول حتى أخرجهم من البلاد الشامية.

ولواقعة عين جالوت أهمية خاصة في التاريخ، لأنها كانت أول هزيمة تلحق بالمغول وبذلك انهارت الخرافة القائلة بأن المغول قوم لا يغلبون،

ووضعت حدّاً لامتدادهم السرطاني. وفتحت هذه الهزيمة عيون الناس على أنه في الإمكان هزيمة المغول مهما كانت أعدادهم، مما أضاع هيبتهم.

انقسام الإمبراطورية:

بعد هزيمة عين جالوت والانسحاب من الشام، انقسمت الإمبراطورية المغولية إلى دويلات عدة. من أشهرها القبيلة الذهبية ـ اعتنقت الإسلام ـ ودويلات فارس والعراق وتركستان والصين. وهذا الانقسام أدى إلى ضعف الإمبراطورية المغولية والطمع في دويلاتها. فاستولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس على الدويلات المغولية في فارس والعراق وأرمينيا.

تيمورلنك:

بظهور تيمورلنك عادت وحدة الإمبراطورية المغولية. إذ تمكن من السيطرة على مساحة شاسعة تمتد من الهند إلى العراق والشام، بعد حروب تشيب لذكرها الأبدان. وبذلك استحق تيمورلنك عن جدارة لقب الأستاذية في التخريب والتدمير. كما حارب تيمورلنك الدولة العثمانية وانتصر عليها وأسر سلطانها بايزيد. وبمرور الزمن انفرط عقد هذه الإمبراطورية، إلا أن الأسر المغولية سيطرت على الحكم في ممالك كثيرة بآسيا من أهمها الصين، حيث بقيت تحكم أسرة مانشو الصين حتى القرن العشرين.

انتشار النفوذ الإسلامي:

نتج عن سيطرة المغول على آسيا الوسطى هجرة عدد كبير من العرب وغيرهم إلى الصين. ولما فتح المغول الصين، استعانوا بالمسلمين في تسيير شؤون البلاد هناك لمهارتهم الإدارية والتجارية. والحقيقة أن الإسلام انتشر في

البلدان الواقعة حول المحيط الهندي وبلاد الشرق الأقصى كالهند، والهند الصينية وجزر أندونيسيا وحتى الصين عن طريق التجار الذين كانوا يتعاملون مع سكان هذه المناطق، ولو أن هؤلاء التجار لم يكونوا محترفين للدعوة الإسلامية. وأصبح للمسلمين هناك نفوذ قوي، كما أن معاملتهم الحسنة حببت فيهم أهالي هذه الجهات وجعلت بعضهم يدين بالدين الإسلامي.

obeikandl.com